

حول مفهوم القبيلة في علم الاجتماع الاستعماري

يقول اليوت سكينير Elliott skiner، وهو انثربولوجي وسفير لجمهورية فولتا العليا بالولايات المتحدة سنة 1976 : (من الحزين جدا أن يكون لفظ «القبيلة» بجميع خلفياته البدائية والتقليدية هو الاسم الذي نطلقه على الهوية التي نستعملها في إفريقيا المعاصرة للحدوث عن الجماعات المتنافسة على السمعة والسلطة.

إن البعض من الأسماء المستعملة اليوم كرموز لعدد من الجماعات، يُحيل الى وحدات سوسيو - ثقافية مختلفة في الماضي، غير أن معظم ما يطلق عليه اسم «جماعات قبلية» كان من صنع وخلق الحقبة الكولونيالية، وحتى تلك التي يمكن ان تدعى أنها استمرار للماضي فقدت بحمل خصائصها التقليدية الى حد يمكن معه اعتبارها وحدات جديدة(1)

فلنتساءل الآن، أهي أزمة مفهوم أم أزمة أسس؟ هل هو سفر انثولوجي تناقض فيه حقل تبلور المفاهيم مع حقل تطبيقها؟ كيف نشأت هذه المفاهيم داخل زمن الخروج الانثولوجي الغربي زمن البحث عن فضاء حيوي، وبوادر خطاب انثولوجي متمركز على ذاته؟ قد نتساءل عند تصفحنا لمجمل المونوغرافيات والكتابات، أو على الأصح، الأدبيات الكولونيالية عن السبب الذي أدى الى غزارة هذه الكتابات حول القبيلة بالضببط، لماذا الاهتمام بالقبيلة اذن؟ أهي تقيض المدينة كيف تم تصور القبيلة؟

إن اسئلة من هذا النوع لن تتم الاجابة عنها الا في اطار المشروع السياسي لنشوء الممارسة الانثروبولوجية، (ذلك أن المشاكل الانثولوجية ليست مشاكل علمية بقدر ما هي مشاكل سياسية، ولهذا لا يمكن معالجتها الا سببا سببا(2)

ان ذلك بالضببط هو ما يؤكدده EDMOND Burke في مقال له يقول : (أتمنى أن أكون اظهرت أهمية الذات ليس فقط من أجل فهم واستيعاب اوائل مراحل البحث والدراسات الانثولوجية في المغرب، ولكن كذلك لما تعلقه صراحة أو ضمنا عن العلاقة الموجودة بين السوسيوولوجيا والسياسة في المجتمع الفرنسي قبل الحرب العالمية الاولى).

1 - لماذا الاهتمام بالقبيلة؟

إن تصفحنا لمجمل كتب ومذكرات رحلات الباحثين القادمين الى المغرب في فترة ما قبل الحماية يظهر لنا، وبطريقة مهزوزة، قالبا لغويا أصبح هو النسق المرجعي لكل النعوتات

والتصنيفات التي انصبت على المغرب كحقل تجربي لها فتارة يقرأ التاريخ القديم لفهم المغرب الحديث، وتارة اخرى يقرأ المغرب الحديث على أنه يشكل مرحلة طفولية لعم الحضارة الغربية.

ان التركيز على القبيلة ليس سوى حديث يهدف أساسا الى اظهار الطابع التقليدي والبدائي الوحشي لمجتمع قابل للرسالة الحضارية التي تكلفت فرنسا بنشرها في المغرب. ومن ثمة فقد جندت مجمل طاقاتها الجسدية والمالية في مشروع تهيبه أساسه — بعد تجربة الجزائر العنيفة والاستفادة منها — معرفة الميكانيزمات الداخلية للمجتمع المغربي، للتمكن من السيطرة عليه. وفي هذا الاطار يتحدث عبد الكبير الخطيبي عن هذا المشروع قائلا (الخلاصة هي ان السياسة العلمية لما بين 1912 — 1925 كانت قائمة على الرغبة في ادراك الحركة الداخلية للمجتمع المغربي، وهي سياسة علمية أساسها المنطق التالي : بعد استسلام البلاد بالقوة يجب الشروع في التشييد الذي لا يمكن ان يتحقق الا بغزو القلوب والعقول، ولهذا يجب اقامة تفاهم أخوي وتعايش سلمي مثمر أساسه ادارة ملائمة ومعرفة دقيقة بالتقاليد والاخلاق، ولقد أدى انسحاب ليوطي سنة 1925 الى ازالة بعض الغموض في النظام الاستعماري حيث فتح الميدان أمام سياسة علمية يسودها الميز والعنصرية)⁽³⁾

نعم غزو القلوب والعقول، انه غزو علمي أساسه الكلمة، أساسه اللغة اجهزة الفكر، يصبح فيه الانسان على حد تعبير «ميشيل فوكو» (وجها بين اختراع لكلام ومغطين من الوجود)⁽⁴⁾ فعوض العنف، تأتي البعثة العلمية التي ستصبح القسم السوسولوجي في ادارة الشؤون الاهلية. وعوض الحديث العلمي عن المغرب تنجز أعمال الضباط، ضباط الشؤون الاهلية عن القبائل في اطار «الارشيفات البربرية» ومجلة «هسبريس» لتصبح بذلك لغة مراقبين مدنيين. الكل يصب في مشروع ليوطي، الكل يصبح على شكل ولاء واخلاص لروح ليوطي، الكل ينطلق منذ البداية من قطب مظلم الى قطب النور، وفي عالم كتاباتهم يتحول ليوطي الى مشعل يخرج المغرب به من الظلمات الى النور.

في قلب هذه الكتابات يُحدث عن القبيلة، للتأكيد على ان المغرب قبل، وعلى أنه قديم، يُحدث عن القبيلة انطلاقا من المدينة الغربية، ويختلط عالمان في كتابة واحدة، يدور الغرب فيها حول نفسه ليقتذف الآخر خارج المطلق الوحشي، نسمع صرخات حضارة الرشد تحاطب ماضيها الابن :

(ايها المغرب المظلم، ابق على ما انت عليه، سورا أمام الاشياء الجديدة أدر ظهره الى اوربا، واستكن الى الاشياء القديمة، زد في نومك، واستمر في حلمك القديم لكي تكون على الاقل آخر بلد يتلو فيه الرجال صلواتهم)⁽⁵⁾

هكذا يفتح الكاتب — الطيب كتابه بهذه المقدمة التي يظهر فيها «نواياه» الحسنة، لا يقاظ المغرب القديم من سباته الذي ما فتىء يغريه بجماله السامي وضربات «الكنيري»

الأيمة وأتین الغیطة المتوحش، فتصبح العلاقة محكومة بقنوات إغراب، تنفج من الخطاب العلمی لترکمی فی احضان الموسیقی. یصبح المغرب اذن فلكلوریا یشاهد من الخارج یمارس فیہ «الامیاد المفكرون» لغة اسقاطیة غریبة وبعیة عن الواقع كل البعد. ضمن هذا الاطار المرجعی ستتلور فیما بعد مداخیل واریضیات الدراسات التالیة هذه المرحلة وستشکل نظام القول والانشاء الذی سیطعم أی حدیث یتخذ المغرب كتجربة كتابة تصاغ علی شكل نصوص تنقب فی الماضي لشرح الحاضر.

سیكون من المشروع اذن ان تساعل عن مفهوم القیلة، أهی إطار فعلی أم إطار نظری فی حقل نظری غریب عن الواقع الذی افرز هذا النوع من التنظيم الاجتماعی ؟ فیاسكون Paul Pascon یصرح بان ابن خلدون نفسه لم یعش ولم یر قبیلة بالمفهوم المتعارف علیه للنظام القبلی فی المغرب.

فی ای حقل دلالی تمت عملیة الصنع هذه اذن ؟ فی ایه ظروف یلقق مثل هذا «المثال / النموذج» لخط من العیش یوجد فی النظریة ویفارق واقعا هو بریء من تسلسل التحلیل الغربی. عند تصفحنا هذه الكتابات الشبه السوسیولوجیة والاثنولوجیة والشبه الاثنولوجیة منها، نجدها تجمع بین النص العربی المتمثل فی الخلدونیات والاستقصاء، والنص الغربی المتمثل فی الدوکیمیات التی ألهمت كلا من آدموند دوتی Doute ومولیراس وشارل د. فوكو، ومونطان ویرك الخ... لن أطیل فی هذه المراجع بل سأختصر هذه المقدمة (واقول مقدمة لانها لیست، سوی تمفصل لمشروع لازال بکرا) فی الاشکالیة : لماذا الاهتمام بالقیلة بالضبط، ولماذا شکلت لازمة أو نواة الكتابات حول المغرب.

یقول اندری آدام André Adam (ان رؤاد السوسیولوجیة المغربیة، سالمون SALMON ودوتی Doute ومیشو بیلر M.Bellaire ومولیراس، یعطون صورة للمجتمع المغربی یطبعها لون سائد، ألا وهو لون (القدیم). ألم یعملوا علی تقویة هذا اللون لا ارادیا وبدون وعی منهم لكی یرروا ویعطوا مشروعیة منذ البدایة للتدخل الفرنسی، بحکم وطنیتهم التی اظهرت لهم أنه مفید ونافع(7)

نكرر، والتکرار فی الخطاب نفسه بأن التکریز علی طابع القِدم والتوحش، المتمثل فی الصفة القبلیة التی نعت بها المغرب ینقلنا من السلطه والعنف العسکرین الی السلطه والعنف النظریین : عنف الخطاب الذی یتخرجه التاریخ لتصبح القیلة بدونه عنفا یخفی ویختفی وراء حقل لغوی فی جمیع حیثیاته اللسانیة، والتی لسنا بصدد الحدیث عنها الآن. كل ما یمینا هو ان المشروع الاستعماری أراد فی البدایة فهم میکانیزمات التکریب الاجتماعی من عادات وتقالید یمارسات، لكی — وهذا ما سیظهر لنا بعد التوغل الاستعماری فی المغرب — یفرغها من محتواها الحقیقی ویدمجها فی کیانه، وكل ذلك فی فضاء سیاسة الدمج والتهدئة «كان

هدف البعثة هو وضع فهرست للمغرب. ومدنه وزواياه، ولأصوبها وتفرعاتها، وللصراعات والتحالقات، مع تتبعها في التاريخ، عبر مختلف الاسر المالكة ودراسة مؤسساتها وعاداتها (...). وباختصار، التعرف في حدود الامكان على الارض التي قد تُدعى ذات يوم للتدخل فيها، فتسهل لنا هذه المعرفة التصرف ونحن على اطلاع جيد...» (8)

كانت هذه القولة لمشو بيلير الذي أصدر سنة 1960 مجلة «العالم الاسلامي» تحديدا لمهمة البعثة العلمية التي انشأها le chatelier سنة 1904، وهي تظهر اذن سياسة الاستعمار بطريقة علنية وصرحة، والتي حدد ليوطي معالمها، فليس من الغريب اذن ان تصيح القبيلة اجابة على سؤال مطروح سلفا كان لا بد، وفي سيرورة التهذئة، من تهىء طريقة الغزو خصوصا وان ليوطي يحمل شعار «يجب معرفة الناس للتمكن من السيطرة عليهم» ومن صميم اعتقاده هذا عمل على خلق رباط أسماء «الجبل الصالح جينوفيف La montagne Sainte Genéviève». وهي عبارة عن مدرسة عليا لدراسة اللغة العربية واللهجات البربرية، والتي اصبحت فيما بعد «معهد الدراسات العليا المغربية» ومن اجل البحث انشأ لجنة الدراسات البربرية التي ابتدأت سنة 1915 في نشر مجلة «الأرشيفات البربرية» والتي أخلت المكان فيما بعد «لمعهد الدراسات المغربية العليا» والتي اخذت منذ 1921 اسم «هسپرس» Hesperis. يقول ليوطي :

(ولقد عملت أكثر من المستطاع، اقصى جهدي اساهم في تحقيق هذا الحلم : لقد مارست التوغل الهاديء عشر سنوات لاختراع الصيغة (...). وللتعريف بالمغرب وجذب الاهتمام اليه من طرف مواطنينا. ولقد عملت ما في وسعي لتهىء المراحل الثلاث الأولى للتهذئة : الدار البيضاء، فاس، مراكش)

سيكون التمهيد لسياسة الردع بتقديم المغرب على انه مغربٌ فَوْضَى، مغرب تشبَّه تسوُّده العصبية، ويحتاج الى الوحدة والمساعدة، خصوصا وان الحوار والنقاش أصبح دائرا بين رحي ثنائية تستدعي الفصل بين جزئها. هذه الثنائية تتجلى في كون القبيلة تقدم بغض النظر عن بدائيتها كتنقيض للمخزن. ان القبيلة تبحث عن مخلص لها من سلطان المخزن، علما منا بان السياسة الاستعمارية قد اعتمدت في مشروعها على اظهار وصيغ المخزن وابرازه على شكل تمثال ضرائبي، وجهاز مقرون به. وبالمقابل تُقَدِّمُ القبيلة كطموح للاستقلال والحرية. نحن هنا، وكما قلنا، ندور في فلك ثنائي يأتي على شكل ازدواجي (المدينة / القرية) (عرب / بربر) (مخزن / سبية). ان الشطر الأول في كل ثنائية انما يرمز في هذه الدراسات الى الخير والايجاب. ويرمز الشطر الثاني الى الشر والسلب. نحن اذن أمام جهاز مفاهيمي في جميع منرجاته الاضمارية، أمام خطاب لا أمام واقع. تتحول كلمة بربر وتحيل الى الغموض والنوعية والخصوصية. ان حقلها الدلالي انما يطبعه العماء (chaos)، فمرة تعني اللا نظام، ومرة أخرى تخرج عن ذاتها لتتزلق في قعر الما قبل النظام، انما ترمي بنا الى الجاهلية، الى بلد لم يستطع السلطان تنظيمه أو

غزوه. لقد كانت هذه الدراسات المتعلقة بالمغرب سواء ما قبل الحماية أو بعدها تظهر السلطان في اطار هذه الثنائية انسانا طاغيا، جشعا، وفي نفس الوقت تنقصه الامكانيات والوسائل، فهو كذلك ينتظر المخلص المتمثل في الاستعمار، في انتظار القوة المتمركزة على ذاتها والتي تكفل في رسالتها بنشر الخير العام، واتمام الوحدة الذي يستحيل تحقيقه وبالضربة نفسها سيضمن للسلطان ولاء شعبه.

تنجذب أطراف الاشكالية بين حدين، بين ما كان عليه المغرب وما سيصبح عليه، بين ماضيه وحاضره، الماضي المغرق في التخلف والجاهلية وما سيصير عليه على يد هؤلاء الاسياد المفكرين، فيقلب الخطاب وتختلط الاشياء في نطاق التية الحسنة المعلن عنها سابقا. ويصبح في اطار هذه البعثات — ان الاستعمار مساعدة والاستغلال شفقة، سيحمل مشعل العهد الجديد ليقول ادmond دوتي (أن تكون بعثتنا قد أفادت في شيء بالنسبة لوطننا، كل الحماة يرجون ذلك، فليتقبلوا اليوم هذه الخطاطة البسيطة لما كان عليه المغرب، والذين ادخلوه في عهد جديد، وبعد قياسهم لامتداد هذا التطور المذهل امكثهم القول آنذاك : هاهي ذي الخدمة التي انجزناها)⁽⁹⁾.

تنجز الخدمة في خضم الكتابة التي تنمو نحو غاية، فيحتل فيها المركز متانة القدااسة بالنسبة لمحيط مُدْتَسَّر تجرّى فيه التجارب على الانسان، ينقلب فيه المغرب الى مَحْبَر، فتكون عملية الكتابة ملغومة منذ البداية في شكلها الايديولوجي السافر، تضع لائحة للنوعت ينظر فيها الى البربري باعتباره ظلا ورمزا قَبْلًا من أصل جرمانى، كل ذلك في اطار مسلسل كون سكان المغرب الاورين هم البرابرة أبناء مازغ، وقد ذهب البعض الى حد اعتبار القديس اغسطين بربريا، فيتساءل عما اذا كنا أقرب الى اوربا منا الى الشرق. وهنا أيضا يظهر منطق التبرير جليا، يتمحور الفرص فيسقط في فخاخ الاصول، يبحث عن بداية الاشياء ليجتثها من جذورها، يبحث عن الاصل قصد سبك ثنائية تدخل من جديد مسرح الكتابة، وتتعجل هذه الثنائية في (الرحل / المقيمين) في سيرورة وغياب جدلية (الجيل والسهل)، ويزعم هذا المنطق اقناع وطمس سياسة الادماج لكي تصبح طعاما سهل الهضم، يتحدد فضاؤه المجازي، في سهولة التبرير الميكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة».

ان دراسات ما قبل مرحلة الحماية والتي كما قلنا سالفا، بأنها مهدت الطريق لسياسة التهدئة، قد أقامت علاقة نوعية بين الأنا والآخر، علاقة يطبعها الاغراء والغرائبية Exotisme، تحلم بمغرب يتطور في ظل وتحت رحمة فرنسا، ويكفل باحث طبيب هذا الخطاب بالافتتان، فيقول سكرير :

(لقد فنتت بالتواضع وحسن الضيافة المغربيتين، والنزه الطويلة عبر القفار المزهرة، غرابة المدن القديمة الميته، حدائق مهجورة واطلال وبقايا.. لقد تلذذت بكل هذا كثيرا إلى حد أني لم أكتشف الفساد والظلم والجشع والقساوة والرشوة والفقير المدقع الذي يختمى وراء هذا

المشهد الخارق، ومن ثم، لم تعد لدى سوى فكرة [...] رؤية المغرب وهو يتطور في طريق أكثر عدلا، أكثر سعادة، أكثر حرية، تحت حكم فرنسا(10)

هكذا تتبدى، وتستمر عملية المسخ، فتصير القبيلة جسما فارغا، هيكلًا عظيمًا تتصدع فيه الهوية ويعاد تركيبها لكي تكون صالحة من جديد : قالبا ووسيلة للتغلغل الاستعماري في اطار اللعبة المنطقية الجديدة. ستصبح جسرا ومُعبراً للاستعمار، تنقلب فيه الانتفاضة الى فتنة وفوضى. ولابد ان الاستعمار تساءل في البداية عن سبب مقاومة القبائل للمخزن، وعن سر حفاظ هذه القبائل على ما اصططلحت عليه الكتابات باسم «الجمهوريات البربرية» تارة، وتحت شعار الديمقراطية البربرية تارة أخرى. هناك اذن مقاومة قبائل في صراعها مع المخزن. وقد تنقلب الاشياء، فيصبح السؤال : لماذا المقاومة ؟ بدبلا عن سؤال لماذا القبيلة بالذات ؟ ولكي نسيطر — حسب ليوطي — يجب ان نعرف معرفة جيدة سر هذه المقاومة، ونبرر معرفتنا. وان نفكر معناه ان نسيطر.

وضمن هذه الدراسات التي جذبت اهتمام الرحالة الباحثين الاجتماعيين، تبلورت صناعة لغة من نوع خاص، لغة مجتمعات «بدائية»، ما فتئت تبحث عن حقل تجريبي لها، يستقبل ولو على مضمض، مضاعفات، وانتاجات المعرفة الغربية، كمعرفة لها تاريخها الخاص وأرضيتها الميتافيزيقية. نقول في هذا الصدد إن بعض الباحثين الانكلوسكسونيين استطاعوا إقامة جسر ومعبر لولوج هذا العالم الغريب والمثير : غريب؛ لما يحتوي عليه من تعقيدات تفوق حدود الفكر الغربي، ومثير؛ بما أنه يمثل لغة الاصل ومشروعية التاريخ المتصاعد، ان لم نقل فكرة التطور المتقدم.

نقول ضمن هذا النوع من الانشاء والقول الانتروبولوجي — علم الاناسة كما يترجمه كثيرون — إنه قد كان عليه أن يتخلى ولو نسبيا عن فكرة السيطرة والعنف والدمج الكلي في الانا المفكر الغربي، لاقامة معرفة تنمو نحو الانفصال عن السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتأخذ لها مكانة خاصة ضمن المعارف الاخرى، فتكون بذلك قد وضعت بداية التنسيق لمعرفة، وتصورات، ضمن مقولات ولوازم وحدود كالمجتمعات «البدائية القبلية» وعن القرابة كعلاقة خاصة بهذه المجتمعات.

ان التعرض للقبيلة، وصياغة هذا المفهوم، لم تطرح في جو معرفي خالص بقدر ما كانت تشابه سلطة من نوع خاص — سلطة الاستعمار ومشاريعه.

والتاريخ في هذه الحقبة يُترك لحفنة من الاثنولوجيين، يعملون على اتمام وتكملة تاريخ الحلقات الفارغة في تأصيل جذور شيء قد يظهر انه ناقص، لاتمام خريطة الانسانية، لأول مراحل الانسان الذي لم يترك تاريخا مكتوبا. ومع ذلك يتحدث هنري مونيو Henri Moniot، عن كتابة نوع من التاريخ من طرف مكتشفين وعسكريين ومبشرين واداريين، فلقد وجدوا

وثائق واستعملوها لتوضيح الهجرات وأشكال الهيمنة السياسية والتبادل الثقافي. فقد ظهر ان بعض هذه الدراسات كانت جدية، ويتميز معظمها بالتجريبية والعصامية، وكان البحث يتم في عزلة ودون صدى أو سند جامعي. ويضيف (مونيو) معلقا على هذه الدراسات في شكلها المؤسسي، كالمدارس الانتولوجية من النوع «التاريخي الثقافي»: «بانها أكثر صلابة في البلدان الناطقة باللمانية وفي الولايات المتحدة الأمريكية التي اهتمت باعادة تركيب ثقافات متتالية مع ماواكبها من أشكال الانتشار والتأثير المتبادل، وبعد ذلك جاءت الدراسات حول «التثاقف»، وكان تركيزها على عمليات الاتصال الثقافي وليس فقط على نتائج ذلك الاتصال، وقد أعطى هذا المنحى أعمالا أقرب الى المنظور التاريخي، إلا أنها تنزع الى التحليل الميكانيكي، وتستوعب الجوانب النفسية أكثر من اهتمامها بالخصائص الاجتماعية والعلاقات الشمولية للمجموعات المعنية»⁽¹¹⁾

هكذا يكتب تاريخ الشعوب التي لا تاريخ لها، وتستعاد الذاكرة المفقودة، الذاكرة المثقوبة، مادام التاريخ في الأدبيات البربرية يُختلق ويُعاد صنعه من جديد، تاريخ يدور في دوامة الوهم الأيديولوجي، وهم الحماية، وسيغدو هذا التاريخ الذي تمت كتابته حول البربرية تاريخيا يعرفنا بالفرنسيين أكثر مما يعرفنا بالبرابرة أنفسهم، فقامت فرنسا بفرنسة البرابرة، وليس العربي سوى غاز لهذه الشعوب. ينبغي الاعتماد على البربري إذن ضد العربي الذي يمثل كل صفات الشر والتعصب، وكما يقول بول كواتلن Paul Goatlen «لا نريد البرابرة لانهم طيبون (أعني لا نريد فرستتهم) ولكنهم كذلك، لاننا نريد فرستتهم»⁽¹²⁾

ان ما يفصل العربي عن البربري في هذه الدراسات هو العرق، فكل واحد ينتمي الى وحدة عرقية معينة وخالصة، لها خصائصها. ومن ثم تتبدى صيرورة استخراج أحكام قيمة مسبقة تتعلق بنفاوة العرق وصفائه، فتتكلم سيكولوجية البربري لغة تختلف عن لغة سيكولوجية العربي. نحن الآن في عالم الأيديولوجيا، عالم القيم، تصيح فيه القبيلة البربرية ممثلة للاهالي، والانسان العربي ممثلا للمستعير (بالكسر)، أما الانسان الفرنسي فهو يمثل المستعير من الدرجة الثانية، لكنه يحترم التقاليد والاعراف، يحترم الانسان البربري ضد الانسان العربي، واللعبة العرقية انما تستفيد هنا من التجربة الجزائرية، ويكون فيها ليوطي رجل حرب وسلم. يحث القواد ذوي الأعمال القيمة والحسنة على القيام باعمال جدية لخدمة الاهالي، أي البربر. يقول: (في هذا العمل البناء سيكون انتاجكم قياديا، ولذا نعهد اليكم دون تخوف بمهمة التعريف بالحياة المغربية. ومشاكلها لضباطنا الشبان الذين يرغبون في خدمة الشعوب الأهلية. وهكذا فإني أرى في معهد الدروس العليا المغربية أكثر الاعوان فائدة في السياسة الفرنسية في الأرض الأفريقية)⁽¹³⁾ إن المستعير هنا يبحث عن وسيلة يصبح معها الاستعمار مشروعاً، ويبحث في الوقت نفسه عن اعتراف به. ان السيد يحتاج الى عبد لكي يحقق ذاته ضمن لعبة الثقافة العالمية. وكما يقول بول كواتلن Paul Coatlén «لقد نظر الى البرابرة على أنهم ليسوا عربا

وانهم ضد المخزن. إن البرابرة ليسوا كالأحر الذي يقاوم الحضارة الفرنسية، والذي لا يريد أن يتخلى عن حضارته، كالإنسان العربي المتعصب العاصي. ان البربر ضمن هذه الرؤية يصبحون أجداد فرنسا الثقافيين» وكما يضيف كواتلن تظهر الطريقة الكلاسيكية التي يصبح فيها الأحر «ثقافة خارجية» تفكر كاللأنحن انطلاقا من مفاهيم سلبية من نوع «مجتمعات بلا كتابة، بلا تاريخ، بلا مكننة أو ليست لهم عقلية صناعية ؟ ان راحة وهدوء المستعمر يتم عن قذف وكبت الآخر في قلب الظلمات، ظلمات اللاموجود لتغيب هويته، ويصبح العربي بدون هوية. أما البربري فمعها تصبح العملية متمفصلة كالاتي (البربر ليسوا عربا. الشيء الذي يعني أن البربر ليسوا اللانحن، اذن انهم مثلنا منذ ثلاثة آلاف قرن)(14)

هكذا يمكن استخلاص بروتوكول القبيلة كانت لازمة هذه الدراسات، مع اقترانها ضمن شبكة العلاقات اللامتكافئة بالمشروع البربري. منذ البداية، ونحن نؤكد ان القبيلة هي هذا الككل الذي يحضر على شكل خطاب. مرة في شكل بربري يمثل القبيلة ويرمز اليها ومرة في شكل القبيلة التي تمثل البربري وتبرز اليه. كل ذلك قصد سياسة ادماجية تنصيد منطق التبرير والادانة. يقول ميشو بيلير (هكذا كانت عقائدنا، إلا انه يجب أن نتمنى ما هو أفضل من ذلك للوصول الى تحقيق الخير، أو على الأقل الى توسط في الامور لتفادي الاصطدامات الخطيرة، ذلك هو الغزو الاخلاقي الذي يجب تحقيقه)(15)

فما هي خصوصية هذا المفهوم ؟ إلى اي حد يمكن اعتبار مفهوم القبيلة مشيرا الى واقع بعينه داخل الانتروبولوجيا الغربية ؟ ما هي الحمولات التي تشبّع بها، وما تشرياته خلال تاريخه الخاص، اذا كان له تاريخ ؟ أهو وهم أم واقع ؟ اختلاف نظري أم وجود فعلي ؟ أسئلة من هذا النوع لا تجوز الاجابة عنها إلا بعد تمحيص الارث الثقافي الغربي الذي عاصر نشوء هذا المفهوم : أهى أزمة مفهوم أم أزمة علم تم احرازه في حقل خاص وضمن ظروف اجتماعية اقتصادية وسياسية خاصة ؟

مراکش

هوامش

- I- Maurice Fodelier
Horison. Trajets marxistes en authropologie p. 191.
- II- Actes du duhram. n° double 138-139 Edmond Burke p. 52 - 1979
- III- Abdelkbir El Khatibi 1970
- IV- Michel foucault - Les mots et les choses 1970 الحوليات المغربية لعلم الاجتماع P. 7 - 8
- V- Docteur Weis Querber - Au Seuil du Maroc moderne - col. Notes et documents : institut des hautes études marocaines - Avant Propos.
- VI- Paul Pascou
Le Haouz de Marrakech - Tome I

- VII- André Adam
Bibliographie critique de sociologie d'Ethnologie et Géographie Humaine du Maroc
Alger 1972
- VIII- Michaud Bellaire
La mission scientifique du Maroc
- IX Edmond doutlé : Mission au Maroc
« En Tribu »
Avant Propos
- X- Weisgerber ibid. P. 7-8
- XI- Henri Moniot 1980 الثقافة الجديدة س 4 1980
- XII- Paul Coataleu
Ethnologie barbare marocaines de sociologie in Annales. 1970. P. 5 - Rabat.
- XIII نشرة معهد الدراسات العليا الغربية لوطي الرباط 1920
- XIII-
- XII- Paul Coataleu op. citlé p. 9
- XV- Archives Marocaines 1971 - P. 262-263